لأن مياه «دجلة» كانت لا تزال تحتفظ بذكرى ثلوج جبال «طوروس» وبرودتها، على الرغم من أن شمس الربيع كانت قد بدأت تنشر الدفء والحرارة.

بيد أنها لم تكن إلا تجربة أولى. فقد كان ينبغي عليه أن يغوص مرة ثانية في الترعة ويترك أحدهم يجزّ لحيته وشعره قبل أن يغمس لـه رأسه مـرة أخيرة تحت سطح الماء فيما تدوّي هذه الكلمات: «ها قد مات الرجل القـديم، ها قـد وُلِد الرجل الجديد وقد عُمِّد ثلاثاً في الماء المُطَهِّر. أهلاً بك بين إخوتك. ومـا دمت حيّاً فتذكّر هذا: إن مَثَل جماعتنا كمَثَل شجرة الزيتـون. يقطف الجـاهل ثمـرتها ويخضمها؛ وإذ يجد طعمها مرّاً فإنه يـطرحها بعيـداً. إلا أن هذه الثمـرة نفسها تتكشّف، إذ يقطفها المدرَّب الذي أُنْضج وتُعُهِّد، عن طعم لذيذ، وتقـدَّم فوق ذلـك الزيت والنـور. كذلـك هو ديننـا. فإذا جَبُنْتَ أمـام طَعْم المرارة الأول لم تبلغ السلامة أبداً».

لقد أصغى «پاتيغ» معلناً التوبة، ومرّر يده بلا أسف على شعره الحليق وبقية لحيته، وعاهد نفسه على أن يُدير ظهره لحياته الماضية ويخضع من غير رعـدة من شكّ لأنظمـة الجماعـة. ومع ذلـك فقد كـان يعلم أن الوقت لم يكن في بستـان النخيـل سوى سُبْحـةٍ من أعمال الإكـراه: هناك أولاً الـدعاء والـترتيل وإقـامـة الشعائر والعبادات اليوميـة العابـرة أو الاحتفاليـة، وعمليات النَّضْـح والوضـوء المختلفـة، على أسـاس أن أدنى تدنُّس حقيقيّ أو مُرتاب بـه ذريعةٌ إلى عمليات تـطهُّر متجـدِّدة؛ ثم تأتي دراسـة النصوص المقـدّسة، الإنجيـل بروايـة «تومـا» والإنجيـل بروايـة «فيليب»، أو «سفر الـرؤيـا» بـروايـة «بـطرس»، وقـد أعـاد «سيتـابي» قراءتهـا وعلّق عليها مئـات المـرّات ونسخهـا بـلا كَلَل مَنْ يتميّـزون بجودة الخطّ من «الإخوة»؛ وكان ينضاف إلى هذه الواجبـات التي تدغـدغ حميّة «پاتيغ» وفضوله النَّهِم واجباتٌ أخرى لم تكن قطّ لتروق له.

كان «أصحاب الملابس البيضاء» يباهون في الواقع بأنهم يملكون خـير أراضي الجوار تعهُّداً وأكثرها خصباً، فقد كانت تُغدق عليهم القوت وفائضاً وافراً كانوا يذهبون لبيعـه في النواحي المحيـطة بهم. وكان «پـاتيغ» يستفـظع هذا النشـاط